هذه الروحانيّة، في غاياتها وأساليبها ووسائلها. وهو يتناول أيضًا موضوع الصلاة، وعلاقتها بالعمل في مفهوم إغناطيوس، وكذلك فحص الضمير كعودة إلى الذات من أجل بناء الحاضر والمستقبل استنادًا إلى خبرات الماضي، وإلى التمييز الروحيّ وهو أداة تتميّز بها الروحانيّة الإغناطيّة تميّزًا أساسيًّا. والتمييز كعامل وسيط يتيح للإنسان أن يبحث عن الله فيكتشفه في كلّ شيء ويقوده إلى أن ينظر في الأشياء فيجد الله فيها. فالتمييز يساعد الإنسان في بحثه عن الله وفي كيفيّة سماع صوته ومعرفة إرادته في واقع الحياة والاتّحاد به من خلال هذا الواقع. وفي ختام الكتاب جدول لمصطلحات الروحانيّة الإغناطيّة في ثلاث لغات (العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة).

وهذا الكتاب الذي صدر في سنة يحتفل فيها الرهبان اليسوعيّون بذكرى مرور ٥٠٠ سنة على ولادة القدّيس إغناطيوس و٤٥٠ سنة على تأسيس الرهبانيّة هو خير مدخل للتعريف بروحانيّتهم وبالمبادئ التي هي في أساس عملهم الرسوليّ في سبيل الكنيسة.

أحوال النصارى في خلافة بني العبّاس

تأليف الدكتور جان موريس فييه

نقله إلى العربيّة حسني زينه

سلسلة «نصوص ودروس ـ المجموعة التاريخيّة»، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٠، ٤٢٣ صفحة

يتناول هذا الكتاب ـ الملف فصلاً هامًّا من تاريخ المشرق إذ إنّه يعرض لأحوال النصارى المشارقة (النساطرة) والمغاربة (اليعاقبة) من السريان والروم الملكيّين في دولة بني العبّاس، وعلى الأخصّ في مدينة بغداد (١٣٢ هـ / ٧٤٩ م إلى ٦٥٦ هـ / ١٢٥٦ م). إنّه ملفّ تاريخ النصارى في وجهه المأساويّ وكذلك في وجهه المشرق، ملفّ العلاقات المسيحيّة ـ الإسلاميّة والعلاقات المسيحيّة ـ يُرشِدُ القارئ والباحث معًا إلى دقائق الأمور والأحداث والأماكن، وإلى تطوّر أحوال الكنائس والعائلات المسيحيّة والديارات والقرى النصرانيّة. ومن أهمّ الشخصيّات السياسيّة والعلميّة والثقافيّة والدينيّة كالوزراء والكتّاب والفلاسفة والبطاركة والأساقفة والشمامسة.

اللافت للنظر في كتابة هذا التاريخ هو النهج العلميّ الذي اتّبعه المؤلّف الدكتور جان موريس فييه: إنّه لا يعتمد فقط على الوثائق والمصادر القديمة مقارنًا بينها، بل إنّه يدعو إلى التحرّز الشديد من التعميم عند استعمال لفظتي «المسلمون» و«النصارى» حتّى في داخل حقبة واحدة محدودة كخلافة «بني العبّاس» مثلاً. فالنصارى المشرقيّون ليسوا جماعة واحدة. كما أنّك إذ تقف أمام الإسلام لا تجد جماعة قُدّت من قطعة واحدة. وكذلك ينبغي التنبّه إلى أنّ التقلّبات التي كان يستفيد منها النصارى أو كانوا ضحاياها، ما كانت إلاّ أصداء هامشيّة

مصدرها التيّارات الكبرى أو الدوّامات التي كانت تعصف بالمجتمعات الإسلاميّة نفسها. هذا كلّه دفع بالمؤرّخ إلى البقاء على أقرب مسافة ممكنة من النصوص لتحديد زمن الحادث وظروفه، خصوصًا وأنّ المؤرّخين القدماء المسلمين لم يؤرّخوا للنصارى إلاّ وقت الاضطرابات والمشاكل، كما أنّ المؤرّخين المسيحيّين اعتادوا الإطناب في ذكر مساوئ المسلمين. ولضبط هذا الواقع التاريخيّ كان لزامًا على المؤرّخ المعاصر أن يعالج قضيّته على فترة زمنيّة طويلة واحدة متجانسة وضمن أمبراطوريّة واسعة.

نظّم الدكتور فيه مادّته، بالنسبة إلى العصر العبّاسيّ، على لوحتين:

اللوحة الأولى محورها الخليفة وما حدث في خلافته (عدد الخلفاء هو سبعة وثلاثون)، واللوحة الثانية محورها البطريرك وما كانت أحوال كنيسته (عدد البطاركة هو ستّة وثلاثون) في السنوات التي قاد فيها الرعيّة. وأمام الوقائع والأحداث يجتهد المؤرّخ في التأويل، بالرغم من أنه يعترف أحيانًا بعجزه أمام الصعوبات والغموض الشديد أو التضارب في المعلومات.

ومن المنهج المتّبع، ننتقل إلى بعض نتائج التأريخ بقلم الدكتور فيه: إنّ معالجته للوقائع تظهر أنّ للنصارى لم يتعرّضوا للاضطهاد المباشر، إلاّ نادرًا في خلافة بني العبّاس. إنّهم نالوا ما ناله مواطنوهم من المسلمين، ولكنّهم أصيبوا في أجسادهم وأرزاقهم نتيجة تعارض المصالح والعداوات بين الأمراء المسلمين والبيزنطيّين أو الصليبيّين... ودفعوا كذلك ثمن قلّة التبصّر عندما انساقوا إلى ما كان يعدّه المسلمون استفزازًا كالجنائز الصاخبة وقرع النواقيس والتيه بالثراء... أمّا ضمور عدد النصارى فيعود إلى مناخ متزايد الثقل من الضغط الاجتماعيّ ـ السياسيّ والتمييز الشرعيّ والإذلال كالضرائب الخاصّة والتمييز بالملابس... ويضيف الدكتور فيه أن رفض النصارى للعالَم الذي كانوا يعيشون فيه مردّه إلى كون هذا العالم قد تشدّد في أخذهم بقوانين لم تتح لهم فرصًا سياسيّة متكافئة ولم تعاملهم معاملة المواطن المتمتّع بحقوق المواطنيّة.

«أحوال النصارى» كتاب يقود إلى تحريك مشاعر الحزن أمام الإخفاق في تكوين علاقة تساعد في النموّ والتكاتف والتكافل. ولكنّه كتاب يقود أيضًا إلى الرجاء في الإفادة من الماضي لصُنع المستقبل.